

كتاب خالد زيادة «الخصيس والنفيس» . . . مفتاح لاستقرار الحاضر عبر استحضر الماضي

وغيرهم!!!

ولأن الإنسانية واحدة، فإن ما يُفَضُّ عنه الغبار في هذا الكتاب يُدرك بكل مدينة وكل سوق، حيث عالم الخرافيش والنبلاء.

وإذا كنت تريد ان تشطح مثلي فاعترف لك ان الكتاب ذكرني بفيلم «احدب نوتردام» وشخصياته، من شطار وتجار وذوي عاهات متواجدين حول الكاتدرائية (وسط السوق)، حيث الفقيه القاسي القلب والاحدب و«إزميرالدا» الجميلة، التي تتراد السوق لأنها ليست من الحرائر بل من بنات الغجر!!

وحدة وشمولية بعض العادات الانسانية، نراها عندما نقارن التاريخ اليومي عند الشعوب!

لم يكن الفقهاء في الكثير من الحضارات يعتبرون أهل اللهو اصحاب مهنة، لانهم «ادنى من الخساسة». ترى أين جثة أهم كوميدي فرنسي «موليير» (٢)؛ بعد موته رميت جفته بالشارع وانتهى الموضوع، لان «محتسب باريس» Reynie le lieutenant général de police Monsieur La كان تماماً من رأي محتسبنا، اما فقهاء

باريس فكانوا يعتبرون انه لا يحق للكوميدي موليير ان يُدفن مع البنيامين!

كل هذا لم يمنع لويس الرابع عشر (صاحب السيف) من الاستمتاع بسرحيات موليير (التي يتعلمها اليوم التلاميذ والطلاب كروائع عالمية) ورقص الباليه مع المحظيات في فرساي، بالطبع، لقد وقف محتسبه او صاحب شرطته عند باب قصره، ليمنع العامة من ازعاجه ومشاهدة حياته الخاصة مع بطانته.

وإذا كنت تريد الاطلاع على ما كان يجري من لهو في قصور امرائنا، فاقراً «كتاب الاغاني» للاصفهاني، او «الف ليلة وليلة»، حيث بذخ مجالس شراب امرائنا يفوق الوصف؟!

ترى أين كان الفقهاء والمحتسبون، عندما أصبحت الظبية «لصة» وسرقت كأس ابي نواس، لتخبئه «في مكان للامير فيه حصاة» (٣).

بينما حدث في اوربا ما يلي:

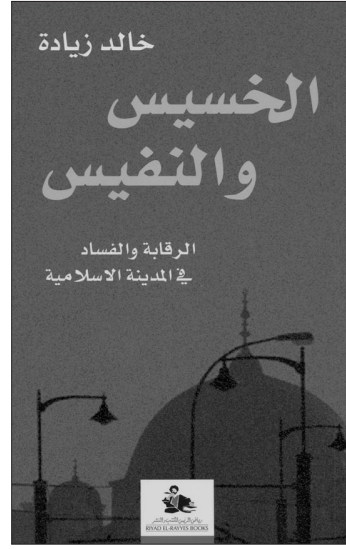
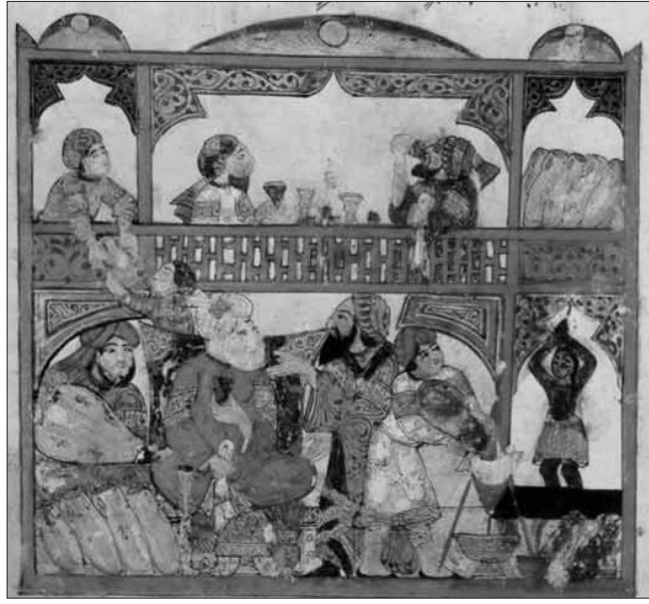
أولاً: الثورة الفكرية قبل الثورة الصناعية! هذه الثورة الفكرية جعلت الفكر السياسي يتعدى مكافيلي الشبيه بابن جماعة (كتاب الامير - ١٥١٣) (٤) ليصل الى توكفيل (كتاب «حول الديمقراطية في أميركا» - ١٨٣٥) (٥) ومرّت هذه الثورة بمراحل، مثل:

هوبس «التنخين» ١٦٥١ (Leviathan)، لوك: الحكم المدني، المسيحية المعقولة، رسالة في التفهم (1690)، هيوم «تاريخ اكلترا (1776 - 1711)، مونتسكيو «روح الشرائع» (1755 - 1689)، والاهم روسو «العقد الاجتماعي» (1762) وفولتير (٦).

بفضل هؤلاء خلع باب القصر، وأصبح «مولانا الامير» يطيع واضع الشرائع لانه مدعوم من الشعب وممظليه.

ثانياً: الثورة الثانية، التي أتت بعد فترة لا بأس بها، كانت الثورة الصناعية، التي جعلت لاوروبا عضلات لا تقهر، وهكذا أصبحت دولة «الباب العالي»، التي في عام ١٥٢٩ حاصرت شيئا، تتحول الى الرجل المريض الذي انهار بعد الحرب العالمية الاولى!!

يبقى السؤال، لماذا بعض المفكرين المسلمين الذين اقرؤا بوجود وجود السلطان لاقامة العمران والعدل (اساس الملك) (امثال ابن قتيبة، الماوردي، ابن عبد ربه، ابن يوسف العامودي، الغزالي، ابن ابي اصيبعة، ابن جماعة، الزياتي، المقرئزي، ابن خلدون وغيرهم كثر) لم يستطع مفكروننا تخطي نظرية المستبد العادل، لاستنباط نظرية حكم تقدمية، بمعنى «غير دوارة»، لا تستند الى «حتمية الانحطاط» و«فساد الدولة»، حتى ولو كانت راشدة، بينما استطاع مفكر الغرب ايجاد نظرية تجدد الدولة «التلقائي» بتبادل السلطة ديمقراطياً بالعودة الى عباد الله.. الشعب.



غلاف الكتاب

بأحكام الشرع. ولكن بما ان السلطة المطلقة تسمح له بتعيين التابعين من الفقهاء والحسبة والقضاة، والمفتين، اضافة الى الولاة، استشرى الفساد في جسم الدولة، بما فيها المراجع.

استشراء الفساد

وهناك من ذهب أبعد من ابن تيمية، مثلاً ابن جماعة، الذي قبل بولاية من «قهر الناس بشوخته بغير بيعة»، وألزم ابن جماعة الناس بطاعته حفاظاً على وحدة الشمل.. «ولا يقدح في ذلك كونه جاهلاً او فاسقاً..» الطاغية!

لقد كان هناك وعي لهذه الاوضاع ولاستشراء الفساد فيها، ولكن ما باليد حيلة. فمثلاً المقرئزي يعدد في «الخطب» أسباب المجاعات في مصر منذ قديم الازمنة، ويحلل تحليلاً علمياً، حين يعزي المجاعة ليس فقط الى أسباب طبيعية، مثل عدم زيادة ارتفاع مياه النيل او قلة الامطار او القحط في بلاد الشام من حيث تستورد مصر، بل يضيف، وهذا هو الاهم، ان هناك ثلاثة أسباب رئيسية هي: الفساد، في «ولاية الخطب السلطانية» والمناصب الدينية بالرشوة؛ «غلاء الاطيان»، اي زيادة كلفة الزراعة، مما يسبب نزوح الفلاحين الى المدن، «رواج الفلوس» اي تلاعب الدولة بالنقود، وخط الذهب والفضة، بادخال النحاس الى الدراهم والدنانير؛ وينهي زيادة كتابه متحدثاً عن الدولة العثمانية، التي حاولت التطور بتوحيد النظام الدراسي والقضائي (مشيخة الاسلام)، والتي حاولت مع سليمان القانوني وضع حدود لتشابك الشرع والسياسة وضبط الامور.

استطراد

الكتاب، بعد توزيعه، يصبح ملكاً للقارىء، الا اذا أعاد الكاتب صياغته، ومن هنا يحق لكل قارىء الاستطراد والتعليق الشخصي على ما قرأ!! هناك نوعان من الكتب الجيدة: الكتاب المشوق الذي تنتهيه، والكتاب الذكي الذي يقلقك ويجعلك تستطرد على ما همس لك.

اذا كنت، ممن يحبون القصص التاريخية، اقرأ «الخصيس والنفيس»، ثم سارع وأعد قراءة «الف ليلة وليلة» ومقامات الحريري والهزاني وكتاب الاغاني للاصفهاني، وكتب ابي عثمان الجاحظ، وسوف تستمتع بها اكثر واكثر، لأنك بعد قراءة ١٨١ مستنداً أوردها المؤلف، سوف تعيش بالبيئة الحقيقية للسوق وقصر الملك، وسوف تكتشف جو الزاروب والزقاق والشباك والدار، التي سار فيها وأطل منها وسكنها ابو الفتح الاسكندري مع عيسى ابن هشام، وابو زيد السروجي مع الحارث بن همام، والعميان، والبرصان، والشاطر حسن، وعلي الزبيق، وعبد الله البحري، وعلي بابا

في الاعياد واجتماعات السمر الى خارج محيط المدينة، حيث شارك المسلمون أهل الزمة بالتسليّة والفرح. اذاً، داخل حيز معين، اي في السوق ووسط المدينة، حيث المسجد، تقوم الحسبة (المحتسب وأعوانه) بدور الشرطة والبلدية وأمور الاجراء ومصلحة منع الغش ووزارة الاقتصاد الخ..

وبما انه لا بد من معايير، يُرجع إليها، فهذه المعايير، كما ذكرنا سابقاً، تحددها توصيات ورسائل الفقهاء.

واستناداً الى نصوص الرسائل الفقهية والتوصيات، أحصينا حوالي ٤٠ مهنة او نشاطاً خسيساً مفسداً (١) اضافة الى ذوي العاهات من الناس.

لم تكن مراقبة ما يحدث في المدينة، لضبطها، من اختصاص المحتسب فقط، بل كان هناك صاحب الشرطة او صاحب المدينة، وهي وظيفة مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة، فاذا كان المحتسب مرجعه الفقيه فإن صاحب الشرطة مرجعه السلطان (صاحب السيف).

ويستنتج المؤلف انه كان هناك نوع من التخصص: الشرع وعينه المحتسب يضبط السوق والعامة من الناس، في حين ان عين السلطان، اي صاحب الشرطة، يراقب الامور السياسية والخاصة من الناس (أهل الرتب والمقامات).

انتصار السلطان على الفقيه

وبالطبع كانت هناك ازدواجية في بعض الاحيان، وكان القرار النهائي يعود الى صاحب الشرطة، الذي مرجعه صاحب السيف، اي الوالي او الامير او السلطان.. يعني تغلب السياسة على الشرع، لان السياسة تعني ادارة الحكم في الداخل والخارج، وفي الداخل قبل الخارج. وهنا نجد ان المطالبة بحكم الله وشرعه (الذي غايةه الدولة الراشدة الأمرة بالمعروف والناهية عن المنكر) ليست جديدة.

وكان الفقهاء (متقفو العصر) يبحثون الامير على تقديم شرع الله على السياسة، لكن دون جدوى، لأن العظة بالتقوى ومخافة الله كانت سبيلهم الوحيد أمام المصالح السياسية التي هي هم الحاكم الاكبر.

وهنا يستشهد الكاتب بالمقرئزي، في كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطب»، كيف ان أهل الحكم من ممالك ودولة تركية اكلوا فصل امور السياسة عن الاحكام الشرعية، تاركين تطبيق الشرع وتحقيقه، في الامور الحياتية بالنسبة الى الناس العاديين، في حوزة المحتسب، بينما طبقوا السياسة داخل الدولة، في الحكم والادارة والامارة، عن طريق صاحب الشرطة (عين الحاكم).

هنا يسلّط زيادة الضوء على الاشكالية العميقة لنظرية الحكم هذه، لأنها تعطي رأس الدولة سلطة مطلقة لا يردعها سوى التمني عليه والطلب منه التقيد

القارىء، اي قارىء، أصبح في عصر العولمة زبوناً لمن يكتب، لأن سرعة تبادل الافكار والمعلومات الكثيرة فرضت التسويق والترويج المعولمن، حتى في عالم الادب، اللهم الا لمن يكتب في برجه العاجي ليستمتع بنرجسيته وبأفكاره.. لما لا؟!

بالطبع ليس هذا حال من يعرض، ويوقع كتابه في معرض للكتاب العربي!

أنا لست أديباً ولا ناقداً ولا عالم اجتماع او تاريخ، ولكنني، بفضل ما ذكرته سابقاً، أشعر انني زبوناً لا بل «زبوناً ملكاً»، لأنني مجرد قارىء غير مختص بعلم النقد والادب والكتابة، وبالطبع التاريخ والاجتماع.

ومن هذا المنطلق أسمع لنفسي ان أكتب عن تأثري بكتاب «الخصيس والنفيس» للدكتور خالد زيادة، الصادر عن دار رياض الرئيس، وأقول «الدكتور»، مع ان زيادة هو حالياً سفير لبنان في القاهرة، ومندوبه الدائم لدى جامعة الدول العربية. ولم استعمل لقب سعادة السفير، الذي يليق به بأكبر قدر وأتم وجه.

لأنه، قبل ان يصبح «سعادة السفير»، كان الكاتب الأكاديمي والباحث الجامعي، المشهود له بسعة العلم وعمقه، والذي أغنى عالم الكتب منذ العام ١٩٨١ بالعديد من المؤلفات: «إكتشاف التقدم الاوروبي»، «النظرة الاسلامية الى أوروبا»، «الصورة التقليدية للمجتمع المدني»، «كتاب السلطان.. حرفة الفقهاء والمنقذين»، وبالطبع «يوم الجمعة يوم الاحد» الذي تُرجم الى اكثر من أربع عشرة لغة، و«حارات الاهل وجارات الله»، و«بوابات المدينة والسور الوهمي»، وأخيراً «حكاية فيصل»، و«ثم كتابنا هذا «الخصيس والنفيس»، الذي يحمل عنواناً آخر مفسراً له: «الرقابة والفساد في المدينة الاسلامية».

تمهيد لا تقديم

الكتاب يحد ذاته مخزن معلومات كثيف، لا بل مضغوط، يُغني الباحث عن الرجوع الى الكثير من الكتب! صحيح ان الكتاب من الحجم الصغير، ولكن الكاتب أورد فيه ١٨١ نصاً، مستنداً الى ٤٠ كتاباً، منذ صدر الاسلام الى نهاية الدولة العثمانية.

وهذا يذكرنا بالكاتب والمرجع القديمة، حيث يُبوّب الكاتب المواضيع، مورداً كل ما أتى عنها من أدب، شعراً ونثراً.. الا انه في «الخصيس والنفيس»، يحلل المؤلف ويستنتج، موحياً للقارىء ما يريده ان يدرك كأنما يهمس له: يمكنك استقراء الحاضر من الماضي.

المؤلف لا يبدأ الكتاب ب«مقدمة»، كالعادة، وانما ب«تمهيد»، واضعاً القارىء على درب مهده، فيه وفتات امام محطات من التاريخ والاخبار، مستقاة من نصوص الكتب ورسائل الفقهاء، تدور حول الحياة في المدينة الاسلامية.

قوانين المدينة

منذ البداية، يتحدث عن الرقابة والمدينة، فيعطينا الكاتب تحديد المدينة، حسب الفقهاء، أمثال الماوردي، الذي يفرّق بين الريف (مصر المزارع والسواد) والحوضر (مصر الفرصة والتجارة)، فيما الكوكباتي يعتبر ان المدينة لا تكون الا بجملة شروط، أهمها القاضي والجامع والسوق والنهر والحمام، كما يقول في «حداائق التمام...».

أما الماوردي فيحدد، في «تسهيل النظر..» الشروط التالية: الماء، تقدير الشوارع والطرق، الجامع في وسط المدينة، تقدير الاسواق، سكن الملك في الاطراف والعوام في الوسط، السور، العلوم والصنائع.

هذه المدينة هي حقل لرقابة الفقهاء، لكن هذه الرقابة محدودة فهي لا تصل الى قصور ومسكن الخاصة وأهل المقامات الرفيعة، فيما يُناط بالمحتسب ضمن هذه الحدود رقابة كل شيء

ويتعرض المؤلف، في الفصل الثالث الى اللهو في المدينة، وكيف استطاعت الحسبة طرد اللهو الجماهيري

هوامش

(١) اصحاب الاعمال الخسيسة هم: التراسون، الصالون، الجمالون، البزادرة، الحجامون، القلشون، الدباغون، الرملية، باعة الرقيق، المشعونون، المشطة، الناشحة، الخراسنة، القوامة، الخراس، الزبالون، القصابون، السماكون، المنقبيل، الكناسون، الحطابون، أهل الكدية (الاونطجية)، القاهرة، اصحاب اللهو مثل: القرابون، الحواة، الجعيدية، المثلون، المهرجون.. حتى الذين يلعبون النرد (طاولة الزهر).

(٢) يطلق الفرنسيون اليوم على لغتهم اسم «لغة

موليير» La langue de Molière وحالياً أهم فرقة مسرح رسمي في فرنسا اسمها «الكوميديا الفرنسية».

(٣) عطفاً على شعر منسوب لأبي نواس عندما أغمض عينيه مثلاً في مجلس شراب الخليفة، فاعتنمت الجارية الفرصة لسرقة كأس شرابه الثمينة، ولما انتبه خبأت المسروق في جسمها، فأنشد:

قصتي أغرب قصة صارت الطيبية لصة سرقت كأس مدامي وامتصاصي منه مصة خبأتها في مكان في فؤادي منه غصة لست انكره وقاراً للامير فيه حصاة (٤) كتاب الامير يعطي الحاكم السلطة المطلقة، وكل الحق

لاستعمال الحيل الاستبدادية والاعذار من أجل الحفاظ على الدولة والحكم، ما اشبهه بابن جماعة عندنا.

(٥) كتاب «حول الديمقراطية في أميركا» لـ «توكفيل»، يتنبأ فيه الكاتب انه بفضل الديمقراطية ستصبح أميركا التي كانت بلد مستوطنات زراعية أعظم قوة في العالم.. يعتبر الفكر الفرنسي ريمون آرون ان هذا الكتاب وكتاب رأس المال لماركس من أهم كتب القرن التاسع عشر.

(٦) كان لكتابات روسو التأثير القوي في اندلاع الثورة الفرنسية ١٧٨٩ لأنه في «العقد الاجتماعي» ينشر ان سلطة الملك ليست معطاة من الله، بل خلافاً لما هو سائد، هي عقد بين الحاكم والشعب، فاذا أحل الحاكم به،

يستطيع الشعب عزله..

وفي رواية «البؤساء» لهوغو (Hugo) شخصية الفتى الباريسي غافروش الذي يساعد الثوار على المتاريس، والذي يسقط برصاص السلطة وقد غنى القوالون الثوار ما قاله غافروش وهو يموت:

Je suis tombé par terre

C'est la faute à Voltaire

Le nez dans le ruisseau

C'est la faute à Rousseau

«لقد وقعت ارضاً بسبب فولتير وانفي في ساقية المجرور بسبب روسو».